**المحاضرة التاسعة**

المحور الخامس: العقوبة حسب المدارس

**قبل أن نتعرف على مدارس علم العقاب وتسلسل ظهورها عبر التاريخ نتعرف على تاريخ علم العقاب، " فكما عرفناه الآن يدرس الجزاء الجنائي للجريمة بصورتها وهما العقوبة والتدبير الاحترازي، والتدابير الاحترازية حديثة النشأة والتكوين إذ أنها ظهرت في أواخر التاسع عشر، فهي بخلاف العقوبة لأن العقوبة عرت منذ القدم. فعلم العقاب إذن يمكننا أن نقول بأنه إذ يرتبط من الناحية التاريخية بالعقوبة فهو علم قديم، وباعتباره العنصر الثاني من الجزاء وارتباطه به فهو علم حديث. فعلم العقاب علم حديث ولكنه ذو تاريخ قديم. وحقيقة الأمر أن علم العقاب لم يحتل مكانته بين العلوم الجنائية إلا حديثا منذ ظهرت المدرسة الوضعية وبدأ التفكير في إبدال التدابير الاحترازية بالعقوبات. إلا أننا لكي ندرس الجزاء بصورتيه (العقوبة والتدبير) لابد أن نرجع إلى بدء التاريخ لكي نتتبع تطور العقوبة على مر العصور وتتبين أنواعها والغرض منها ووسائل تنفيذها. وقديما جدا كانت الفكرة أن الجريمة شر يلحق بالمجتمع وأن العقوبة يجب أن تكون "شر يقابل شرا" وكان ينظر إلى المجرم على أنه شخص منبوذ أغضب الآلهة، فيجب أن تحيق به الآلام ثم تغيرت النظرة إلى الجريمة والمجرم والى العقوبة على مر العصور.**

**ويمكن القول بأن تطور علم العقاب من الناحية التاريخية مر بثلاث مراحل:**

أ-المرحلة الأولى:

**في هذه المرحلة ساد الاهتمام بالعقوبة في حد ذاتها وإذا استثنينا عقوبة الإعدام أيا كانت وسيلة تنفيذها وكذا عقوبة الغرامة المالية، وركزنا على العقوبة السالبة للحرية التي يكون فيها المحكوم عليه حبيسا في السجون والمعتقلات لفترات من الزمن، نقول أن الاهتمام كان نادرا بحالة تلك المؤسسات العقابية ونظمها والحياة فيها، ولم يكن في هذه المرحلة أي تفكير في شخصية المجرم.**

ب-المرحلة الثانية:

**تلك هي المرحلة التالية التي جاءت بعد فترة طويلة من الزمن وفيها بدأ التفكير في المجرم. وبدأ الاهتمام بشخصية المحكوم عليه. وبتعبير آخر بعد إن كانت الموازنة دائما بين الجريمة والعقوبة فالجريمة المروعة يكون عقابها جسيما، لذلك اتجهت الأنظار إلى الشخص الجاني وظروفه وملابسات ارتكابه للفعل المجرم وبدأ التفكير في أن تتنوع العقوبة بحسب شخصية الجاني إلى جانب جسامة الجريمة، أي أن الثقل تحول إلى الناحية الشخصية في الجريمة بعد أن كان قاصرا على الناحية الموضوعية فقط، وتحويل الثقل من الجريمة إلى الجاني وهو ما يعبر عنه بتفريد العقاب، ومبدأ تفريد العقاب أساسه اتجاه الفكر العقابي إلى معاملة الجاني معاملة إنسانية.**

ج- المرحلة الثالثة:

**في هذه المرحلة زاد الاهتمام بإنسانية المجرم وتجلت النظرة الإصلاحية وظهرت فكرة التدابير الاحترازية سواء كانت تدابير علاجية أو تهذيبية. ويرد الباحثون في علم العقاب هذا التحول في هذه المرحلة إلى عدة أسباب جوهرية أهمها:**

1- جهود الكنيسة:

**فقد كان لانتشار المسيحية وتعاليمها التي تحث على الرحمة والرهبنة أثر ملموس في نبذ استعمال العنف مع المجرم لأن التعاليم الدينية تقول بأن المجرم إنسان مخطئ، فيجب عليه أن يتوب إلى الله ويكفر عن ذنوبه، ونتيجة لهذه الأفكار تحول المجرم من منبوذ إلى مخطئ ونشأ على اثر ذلك نظام السجن الانفرادي بدلا من نظام اختلاط المساجين بما فيه من مساوئ ونشأ أيضا نظام التهذيب الديني والسماح لرجال الدين الالتقاء بالمساجين لحثهم على الاستغفار والتوبة، في سجنهم الانفرادي حتى يغفر لهم خطيئتهم، وكان التهذيب الديني بهذا الوضع نواة للتهذيب العام الذي يطبق حاليا على المحكوم عليهم في المؤسسات العقابية.**

2- تطور النظم السياسية:

**كان لتطور النظم السياسية في العالم كله خلال القرنين 18 و19 نتيجة الثورات الاجتماعية وقيام نظم ديمقراطية بدلا من النظم الملكية في كثير من الدول الأوربية، حيث تقوم الديمقراطية على المساواة بين الناس وأدى ذلك إلى القول أن واجب الدولة في أن تعين المحكوم عليه على النهوض من كبوته زاد اليقين بضرورة الاهتمام بالسجون والمؤسسات العقابية وتزويدها بذوي الخبرات في إعادة تأهيل المحكوم عليهم.**

3- تقدم العلوم الإنسانية:

**كان لتقدم العلوم الإنسانية في العصر الحديث وظهور علم الإجرام وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم التربية وغيرها من العلوم الإنسانية أثرها في ضرورة تزويد المحكوم عليهم بقسط من التثقيف والتهذيب والتربية الحديثة وغرس وتنمية القيم الاجتماعية فيهم، كما أن ذلك يستلزم تصنيف المجرمين في مجموعات متجانسة أو متقاربة حتى يكون للبرامج التهذيبية أثرها المرجو.**

4- تعدد المهتمين بالمشاكل العقابية**:**

**كثر** **هم العلماء الذين اهتموا بمشاكل العقوبات وتنفيذها ومنهم مابيون Mabillon الذي نادى بالتعبد والرهبانية للتكفير عن إثم الجريمة، ومنهم هاورد Howard الذي ندد بالنظام الانفرادي وحارب فكرة الرهبانية، وأما تلميذاه بنتام Bentham وميرابو Mirabeau اللذان سارا على فكره، ويؤثر عن هوارد قوله دع المسجونين يعملون ليتحولوا إلى شرفاء بمعنى أن النظام الانفرادي في السجن لا يجدي ولكن الأفضل أن تترك حرية العمل المهني المنتج للمساجين حتى يتحولوا بعد ذلك إلى شرفاء لا يرتكبون الجريمة.**